و للحديث صلة...

إمتداد للحديث السابق عن الحلقة التلفزيونية فى برنامج (السكوت جهراً) والتى تناقش قضايا الشباب .. حول العمل والوظيفة والدرجة الجامعية ما زال الصدى الطيب لما أثير فيها يتردد فى أذنى موجات تتداح وتتسع وتنبش من ذاكرتى عدة موضوعات ذكرت فى نطاق الحديث عن متطلبات العمل وضرورات التعليم.

وفى نهاية الحلقة سأل مقدم البرنامج الشباب هل: كان للتعريب أى اثر سلبى فى مسيرة التعليم .. وهل واجهتكم أى مشاكل نتيجة ضعف اللغة الإنجليزية فى البحث عن عمل أو البحوث العلمية ..؟ وأحاول هنا ان استرجع بعض الاجابات التى جاءت عفو الخاطر .. فى وقت أصبحت فيه حرية التعبير تتمتع بقدر من الإحترام و تتبختر فى شارع الإعلام بصورة لم يسبق لها مثيل فى الحقبة الأخيرة ان لم يكن البرنامج ذاته أحد وسائل التعبيرالناطقة بإسم هذه الحرية الممنوحة بلا قيود .. فقال أحدهم: "لقد كان التعريب كارثة". وقالت أخرى: "مشاكل لا حدود لها فى العمل والدراسة". وقال آخر: "ودانا فى ستين داهيه ولا اعرف وين حيودينا لو لم يتوقف". وأرجو العودة الى تسجيل الحلقة.

أنا هنا لا أعارض التعريب كمفهوم .. ولا أنتقد أصحاب الفكرة كمصلحين يسعون الى كسب قضية فكرية ودينية .. ولكننى أعود الى التوقيت .. وأسلوب التنفيذ .. وعامل الزمن الذى يستغرق التحول النوعى والموضوعى فيه من منهج تعليمى الى آخر الى وضع بداية ونهاية بعداخضاعها للدراسة والتجربة النموذجية قبل التعميم بصورة مطلقة و مسرعة ويجب أن أقرر فى البدء أننى أحد دعاة التعريب .. وما كتبته من مؤلفات باللغة العربية يقف شاهد صدق على حبى للتعريب وإيمانى بضرورته فى مجالات شتى .. ليس فقط من باب الإيمان المطلق برسالة تمجيد لغة التوحيد .. لغة القرآن .. (وانا نزلنا الذكر وانا له لحافظون) .. وكتاباتى حول الطب النفسى عبر الحضارات أو الثقافات فى اكثر من كتاب .. واصرارى على النهج العربى فى كتابة هذا الباب كان وما زال عملا انتقائيا فى جانب دون آخر حتى فى مجال تخصصى لأنه لا يمكن أن يستوعب عامة الناس خفايا الطب النفسى ولا يمكن تصحيح المفاهيم الخاطئة والمغلوطة إلا من خلال التعريب المتفق عليه والذى لا يضير حوارنا مع الحضارات الأخرى .. وهو أمر معصوم من التأثير السلبى على استفادتنا من العلوم النفسية باللغة الإنجليزية كوسيلة تعليم .. ويشاطرنى هذا الراى الصديق الراحل البروفسير عادل صادق صاحب المؤلفات العربية المشهورة فى الطب النفسى وهذه توعية جماهيرية عاجلة وملحة أو البروفسير يحى الرخاوى أستاذ الطب النفسى بجامعة القاهرة والعلم البارز فى تعريب مصطلحات الطب النفسى والبروفسير محمد فخر الإسلام استاذ "الطب النفسى عبر الثقافات" وأحد الرموز العربية فى مجال التعريب ولكنه التعريب الذى لا يمس أدوات توصيل المعلومة ومتابعة البحث العلمى فى المراجع الاجنبية.

أذكر فى بداية الحديث عن السلم التعليمى فى السودان أن إلتقيت بالأستاذ الدكتور محى الدين صابر .. خبير منظمة اليونسكو وكان وزيرا للتربية والتعليم آنذاك وصاحب فكرة السلم التعليمى وكان يأتى فى المساء الى جريدة (الزمان) فى الخرطوم.. قلت له: أخشى يا أستاذى أن يسقط معظم الطلاب من السلم التعليمى الجديد .. وينكسرون .. فقال لنا: كل كسر قابل للجبر .. ولكن التجربة واجبة التطبيق و افترقنا على أمل اللقاء .. ولا أدرى كم من الكسور قد تم جبرها بعد تطبيق السلم التعليمى .. وسياسة العون الذاتى فى التعليم الثانوى.

PDF processed with CutePDF evaluation edition www.CutePDF.com

ينبغى أن أقررأننى لا أريد ان ابخس الناس أشياءهم ولا يدفعنى التعميم الأجوف ولا التبسيط المخل فى التعامل مع قضايا مصيرية صارت لها تداعيات اقتصادية و سياسية .. ولا اريد ان أدعى النبؤة بما قلت فيها ولكن من الواضح انها لم تكن خطوة موفقة حسب تعبير الشباب الذى كان عنصر التجربة و أداة التنفيذ، اذ انعكست سلبا على مسيرة التعليم .. و ربما كان التفكير فى التعريب امتداداً طبيعيا للحالة الاكاديمية التى وصل اليها التعليم ولم تكن قضية التعريب تضيف ضرراً اكثر مما لحق به بل قد تجد مسوغا موضوعيا لتحقيق انجاز يخدم أهداف الدولة وتوجهات النظام الحاكم فى سياق تطبيق مشروعه السياسى وسيادة التعليم الدينى و "المعاهد العلمية" على قدم المساواة مع الجامعات التطبيقية.

وحتى أؤكد اننى لا أبخس الناس أشياءهم، فقد حمدت للزميل فى الدراسة ابن دفعتى البروفسير ابراهيم احمد عمر جرأته و قدرته على اتخاذ قرار سياسى عجز عن اتخاذه ساسة كبار قبله فى توسيع مقاعد الدراسة أو زيادة عدد الجامعات ربما تكون لأسباب مقنعة ولكنها كانت مغلفة بأجندة أخرى إذ طلبنا كأولياء أمور الطلاب المغتربين تسهيل دخول الطلاب الى جامعة الخرطوم بشتى المقاصد التعليمية والأخلاقية والسياسية، ولكن باءت المساعى بالفشل ووقفت السياسة حجر عثرة فى زيادة مقاعد الجامعة لإستقبال هؤلاء الطلاب .. وجاء الأخ البروفسير إبراهيم ليضاعف أعداد الجامعات. وإذا كان السلم التعليمى والمدارس العليا بالعون الذاتى قد أفرغت التعليم من محتواه وزادت طوابير العاجزين عن وجود فرص الدراسة فقد كانت خطوة افتتاح جامعات جديده تمثل طوق النجاة فى سد ثغرة فى هيكل النظام التعليمى على الأقل فى استيعاب الفائض من طلاب الثانوية العامة الذين امتلأت بهم شوارع العاصمة.

ولكن..!! وقاتل الله (لكن) والتى تفتح عمل الشيطان .. فقد كان التوقيت .. والتكتيك فى التنفيذ بعيداً عن ترشيد الإستراتيجية التى تخدم أهداف التعليم الجامعى .. فجاء بعده الطوفان .. فى الكم والكيف ..و الأعداد الخرافية من الطلاب .. والمناهج التعريبية التى انقطعت من الوصل مع التعليم الأكاديمى الأجنبى مصدر الحداثة .. وأنبتت من الأصل منبع الأصالة الذى لم تتوفر فيه المراجع الكافية لمواكبة التطور الحديث فى العلوم التطبيقية. وبما أن اللغة الانجليزية كانت وسيلة التخاطب ليست فقط فى قاعة المحاضرات وأنما أصبحت فى لغة المعاينات للحصول على وظيفة فى عالم العولمة اليوم .. فقد صدق الشاب الذى قال: "لقد ودانا التعريب فى ستين داهية". وقال: "اليوم يا انجليزى يا واسطه للحصول على وظيفة" .

كما أن سوق العمالة فى الدولة وفرص العمل فى الخارج و خاصة دول الخليج قد تأثرت سلبا .. بينما كانت جامعة الخرطوم هى المصدر الأول والأخير فى تزويد هذه الدول بالكفاءات العلمية فى شتى التخصصات .. وكانت الشهادة السودانية من أرقى المؤهلات العلمية للمنافسة .. وكانت الدول المجاورة تتنافس على اجتذاب الصفوة من خريجى الجامعات السودانية .. حتى تصل الى مرحلة الإكتفاء الذاتى .. و كانت شبة مناطق مقفولة للخريج السودانى. فلم نحافظ على مستوى القدرة على التصدير .. وكان الخريج السودانى كالعملة الصعبة فى سوق العمل وكان رصيداً من الأصول الثابته فى بورصة التعامل مع المنظمات الاقليمية والدولية.

أليس الشعور بالحسرة عاطفة انسانية مشروعة لشباب يرى فى عتبات السلم التعليمى و خطوات التعريب المتسارعة عقبة فى صعود قمة الجبل للوصول الى تحقيق طموحاته اليوم بالداخل و الخارج..؟
وكان الله فى عون السودان ..فى السَّراء و الضَّراء.

و لنا عودة باذن الله...
دكتور الزين عباس عمارة – أبوظبى